1436 هـ - 2015 م

تفريغ سلسلة

سيكولوجيا الانحراف

للدكتور إياد قنيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

سلسلة

" سيكولوجيا الانحراف "

للدكتور/ إياد قنيبي (فك الله أسره)

مؤسسة التحايا

قسم التفريغ والنشر

تنويه: استعنا في هذه السلسلة بالتفريغات الموجودة على شبكة الإنترنت، ولكن قمنا بجمع دروس السلسلة وترتيبها في ملف واحد، وأعدنا مطابقتها بالأصل (الأشرطة الصوتية). وقمنا بتنسيق الملف والآيات القرآنية الموجودة حتى تسهل المعلومة وتتضح للقارئ.

1- من أسرى إلى متعاونين مع العدو!

السلام عليكم ورحمة الله.

إخوتي الكرام، أحد أكثر الكتب مبيعا في أمريكا هو كتاب (Influence: The Psychology of Persuasion) (التأثير وسيكولوجيا الإقناع) للبروفيسور الأمريكي: Robert Cialdini. هذا الكتاب يتناول في الفصل الثالث منه أسلوب "الالتزام والتوافق" (Commitment and Consistency) كواحد من أنجح الوسائل في الإقناع، حيث استخدمه المحققون الصينيون لإقناع الأسرى من الجنود الأمريكيين بالتعاون معهم في الحرب الكورية.

وقد قام الأخ محمد الكيلاني بترجمة هذا الفصل وإسقاطه على واقع الحركات المنتسبة إلى العمل السياسي الإسلامي، والتي تستدرج إلى فخ الالتزام والتوافق لحرفها عن مسارها. وسنرى إن كان هذا ينطبق أيضا على ما يحصل الآن في سوريا من استدراج لبعض الفصائل المقاتلة للالتحاق بالمجلس العسكري وإفشال مشروع الدولة الإسلامية.

سنعرض بداية لما جرى مع الأسرى الأمريكيين لنفهم من خلاله أسلوب "الالتزام والتوافق": قصتنا تبدأ مع الأسرى الأمريكيين العائدين من معسكرات الاعتقال في الصين الشيوعية بعد الحرب الكورية التي اشتركت فيها الدولتان في الخمسينات من القرن الماضي، حيث تفاجأت القيادة الحربية الأمريكية بنجاح مقلق للمستجوبين الصينيين في تطويع الجنود الأمريكيين واستخراج المعلومات منهم بدون استخدام الأساليب الوحشية أو التعذيب! فقد كان الأسرى متعاونين إلى أقصى الحدود في الإبلاغ عن محاولات الهروب لزملائهم، وكانوا يقدمون هذه المعلومات دون إكراه وبمجرد أن تعرض عليهم مكافأة لا قيمة لها ككيس من الأرز.

على إثر ذلك شكلت القيادة الحربية الأمريكية فريق التقييم النفسي والعصبي بقيادة الدكتور هنري سيغال الذي قام باستجواب أسرى الحرب العائدين بشكل مكثف للوقوف على طرق الصينيين في استمالتهم للتعاون معهم وتغيير قناعاتهم. فتبين أن الصينيين يعتمدون طريقة "انتزع تنازلا صغيرا ثم ابن عليه"، بحيث ينتزعون من الأسير

الأمريكي أي تنازل يسير، ثم يوثقون هذا التنازل، ثم يستدرجون الأسير إلى الاعتراف بتبعات ولوازم هذا التنازل، فيلتزم الأسير هذه التبعات ويقر بها، إلى أن يجد نفسه يغير نفسيته ليصبح منسجما مع موقفه الجديد، ومن ثم تتفاقم تنازلاته إلى أن يصبح في النهاية عميلا من حيث لا يشعر. هذه هي خلاصة أسلوب الالتزام والتوافق (Commitment and Consistency).

☚ تعالوا نتابع تفاصيل هذه القصة لنتفهم هذا الأسلوب بعمق:

بداية كان الصينيون يطالبون الأسير الأمريكي أن يعطي تصريحات تبدو في غاية البساطة وبدون أية تبعات تذكر، مثل: "الولايات المتحدة الأمريكية ليست كاملة" أو: "لا توجد مشكلة البطالة في الدولة الشيوعية". ولكن ما أن تتم تلبية هذه الطلبات "البسيطة" حتى يطالب الأسرى باتخاذ موقف آخر يبدو نتيجة تلقائية للتصريح الأول، لكنه يمثل تنازلا أكبر وتلبية أقرب لمطالب العدو.

فمثلا الأسير الذي يوافق مع المستجوب الصيني على أن الولايات المتحدة ليست كاملة؛ يطلب منه كتابة قائمة بالمشاكل في أمريكا التي تجعلها غير كاملة، ثم يوقع باسمه على القائمة. ثم بعد فترة يطلب منه قراءة هذه القائمة في مجموعة نقاش مع الأسرى الآخرين. وقد يطلب منه بعدها أن يكتب مقالا يتوسع فيه بشرح تفصيلي للنقاط التي كتبها في قائمته وجوانب تلك المشاكل. ويقال له في ذلك كله: (أليس هذا ما تعتقده أنت بنفسك دون إجبار أحد؟ لا نطالبك بأكثر من أن تصرح بمعتقدك. إن كنت واثقا من معتقدك فأنت على استعداد أن تلتزم به. أليس كذلك؟).

وهذا ما نقصده بالالتزام (Commitment): صرح تصريحا بسيطا لكنه التزم بتبعاته.

وكان الصينيون يجرون مسابقات بين الأسرى الأمريكيين لأحسن مقال عن مقارنة أمريكا بالشيوعية، وأحيانا يفوز مقال يمدح في عمومه الولايات المتحدة لكنه يلين لوجهة النظر الصينية الشيوعية في موضع أو موضعين. المهم انتزاع أي تنازل مهما كان بسيطا.

ثم إذا بالصينيين يبثون مقال الأسير الأمريكي مع اسمه على الراديو الموجه للقوات الأمريكية المقاتلة وكذلك في كل معسكرات الاعتقال، بحيث يسمعه الأسير نفسه. وفجأة يجد الأسير الأمريكي نفسه قد قام بتصريحات تخدم العدو، أي أنه أصبح بطريقة أو بأخرى "متعاونا مع العدو".

والمهم جدا في الأمر أن الأسير يدرك في قرارة نفسه أنه قام بما قام به وكتب مقاله واتخذ مواقفه طواعية بدون تهديدات شديدة أو إكراه. فلو تم الأمر بالإكراه لوجد الأسير لنفسه عذرا لمواقفه هذه وكذلك الناس حوله، بل سيؤدي الإكراه إلى نفوره من المواقف التي اتخذها ورفضها وتبرؤه الداخلي منها. لكنه في الواقع فعل ما فعل دون إكراه.

فينتهي الأمر بالأسير إلى تغيير نظرته إلى نفسه حتى يصبح متوافقا ومنسجما (consistent) مع الفعل الذي قام به ومع التعريف الجديد لنفسه كـ (متعاون مع العدو). بدأ الأمر بتصريحات تبدو تافهة وعديمة القيمة، لكن الأسير التزم بهذه التصريحات ثم استدرج لخطوات أخرى غيرت من نفسيته، وهذا التغيير بدوره سمح له بتقديم تنازلات أكبر، وهكذا دواليك على مبدأ الحلقة الخبيثة (vicious cycle) إلى أن يكتب مقالا موسعا ينتقد فيه نظام الدولة التي كان يحارب من أجلها بل ويتعاون مع عدوها. هذه هي خلاصة أسلوب الالتزام والتوافق.

وقد لاحظ الفريق النفسي أربعة عوامل مهمة للغاية لضمان فعالية هذا الأسلوب في تغيير موقف الأسير وقناعته:

العامل الأول: ضرورة أن يوثق الأسير الأمريكي موقفه أو تصريحه، حيث أن هذا التوثيق أقوى في تغيير انطباعه عن نفسه وانطباع زملائه عنه. فالشخص يستحضر لا شعوريا مواقفه السابقة، وخاصة الموثقة منها، وكأنها المصدر الرئيسي لمعلوماته عن نفسه وتحديد شخصيته. وعليه فقد كان الصينيون حريصين على انتزاع موقف موثق منسجم مع رغباتهم، إلى درجة أن الأسير إذا رفض أن يكتب العبارات المذكورة مثل: "أمريكا ليست كاملة" أو: "لا بطالة في الشيوعية" فإنه كان يطلب منه نسخ سؤال وجواب مكتوبين له مسبقا فيهما هذه المعاني. فهذه الكتابة بخط يده –كدليل ملموس– تستدرج الأسير إلى التغيير النفسي ولو بدأ قليلا، كما أن الصينيين كانوا يطلعون الأسرى الآخرين عليها لتتغير نظرتهم إلى زميلهم.

والغريب في الأمر أن الآخرين حتى وإن علموا بأن الكاتب لم يختر كتابة تلك السطور بدافعية ذاتية، إلا أنهم سيشعرون بأن تلك الكتابات تمثل حقيقة اعتقاد الأسير وإحساسه طالما أن صياغتها لا تشعر بأنه كتبها مكرها. وهذه خلاصة دراسة لعالمي النفس: إدوارد جونز وجيمس هاريس. وليس ببعيد عن أذهاننا التراجعات التي نشرت منسوبة إلى بعض منظري التيار الجهادي وتأثر الناس بها على الرغم من معرفتهم بأن هؤلاء المنظرين كتبوها في الأسر ولا زالوا في الأسر!

تغير نظرة الآخرين لك تجعلك في النهاية تغير نظرتك إلى نفسك.

العامل الثاني لضمان نجاح الاستدراج إلى الالتزام والتوافق هو: الالتزام العلني. فالذي يتخذ موقفا معلنا يكون أكثر التزاما به ودفاعا عنه ممن لا يعلن موقفه على الملأ.

لذا فقد كان الصينيون في المسابقات المذكورة يأتون بالمقال الذي يلين ولو قليلا للشيوعية وسط مديح كثير لنظام أمريكا، فيعلقون هذا المقال في معسكرات الاعتقال ويبثونه بالراديو ليجد صاحب المقال نفسه مدفوعا إلى المحافظة على الموقف الذي اتخذه، مبررا للتصريح الذي صرح به، ليبدو كإنسان لديه مبدأ ثابت، كإنسان منسجم مع ذاته ومتوافق مع أفعاله. وهنا حبكة الموضوع.

فالشخص الذي يتصرف بأشكال متناقضة يبدو في عيون الناس متقلبا غير واثق، مشتت الفكر، غير جدير بالثقة. وهذه الخصائص كلها مكروهة من المجتمع ومن الشخص نفسه. بينما يبدو الشخص المتوافق الثابت في تصرفاته بأنه واثق سديد الرأي. ولذلك فإنك تجد الناس يسعون دائما لأن يكونوا متوافقين في تصرفاتهم ويتجنبوا كل ما يمكن اعتباره تضاربا في مواقفهم.

العامل الثالث هو: الجهد الإضافي المبذول، فهذا يؤدي إلى التزام أعلى. في عام 1959 قام الباحثان إليوت أرونسون وجدسون ميلز بدراسة بينت أن الشخص الذي يخوض ألما وعناء شديدين في سبيل الحصول على شيء ما فإنه يعطي هذا الشيء أهمية أكبر بكثير ممن حصل على الشيء ذاته بجهد قليل. وفي حالة الأسرى الأمريكيين فإن كتابة مقال موسع سعيا للفوز في المسابقة لم تكن أمرا سهلا.

العامل الرابع والأخير لنجاح استدراج الأسير بأسلوب التوافق والالتزام هو: الاختيار الذاتي، وهو العامل الأكثر أهمية. ففي تجربة الأسرى الأمريكيين قد يتبادر إلى الذهن أنه حتى يتم تحفيز الأسير للفوز في مسابقة بكتابة مقال يلين للشيوعية فإن الجوائز مقابل ذلك يجب أن تكون ذات قيمة عالية. ولكننا نجد أن الجوائز كانت ذات قيمة قليلة، فمن بعض السجائر إلى القليل من الفواكه الطازجة، وليس جائزة كبيرة مثل: ملابس دافئة في البرد القارص أو تسهيل الاتصال بالعالم الخارجي. كان هدف حجب الجوائز الكبيرة هو أن يحس الأسير بأن كتاباته هي ملكه ونابعة من ذاته، بدون أن ينظر لنفسه على أنه كتب ما كتب طمعا في جائزة كبيرة. والمقصود من ذلك كله هو أن يتحمل الأسير أمام نفسه مسؤولية عما كتب.

فالهدف من هذه المحفزات هو تحفيز الأسرى للمشاركة في المسابقة، والحد من قيمتها هو لئلا يشعروا بأنهم غيروا مبادئهم من أجلها. إذ أن المطلوب هو أن يقبل الأسرى المسؤولية الذاتية الداخلية عن عملهم وكتاباتهم ويشعروا بأنهم ملزمون به ومضطرون للدفاع عنه.

كانت هذه خلاصة تجربة الأسرى الأمريكيين الذين قدموا تنازلات تبدو عديمة التبعات في البداية لكنهم وصلوا في المحصلة إلى تغيير مبادئهم والتعاون مع العدو.

ما علاقة هذا كله بانحرافات الإسلاميين في العمل السياسي وانحرافات الفصائل المقاتلة في سوريا بل وانحراف الأفراد بل وبعض الدعاة؟ هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة بإذن الله، وهي حلقة في غاية الأهمية فتابعوها.

والسلام عليكم ورحمة الله.

2- هكذا تنحرف الدعوات

السلام عليكم ورحمة الله.

إخوتي الكرام، تكلمنا في الحلقة الماضية (سيكولوجيا الانحراف) عن أسلوب الالتزام والتوافق، والذي استخدمه المحققون الصينيون في استدراج الأسرى الأمريكيين إلى تغيير مبادئهم والتعاون معهم. اليوم سنتأمل إسقاطات أسلوب الالتزام والتوافق على واقع الحركات المنتسبة للعمل السياسي الإسلامي.

رأينا في سيكولوجيا الانحراف أن الأسير كان يطالب بداية بتصريح يبدو عديم الأهمية عديم التبعات ينتقص فيه ولو قليلا من نظام دولته أو يلين قليلا لنظام الدولة المعادية. بدأ الأسير بعبارات مثل: (أمريكا ليست كاملة) أو: (لا بطالة في الشيوعية)، وتدرجوا به حتى أصبح في النهاية واشيا عن رفقاء سلاحه إن حاولوا الهروب من معتقلهم!

قارن ذلك بتصريحات بدأت بها الحركات الإسلامية السياسية مثل: "الديمقراطية مبدأ باطل يتعارض مع الإسلام، لكنها الوسيلة الوحيدة المتاحة للوصول إلى الحكم الإسلامي؛ فسنتخذها مطية لذلك لا هدفا". إذا بدأ الأمر بإنكار الديمقراطية لكن مع اعتبار التعاطي معها ضرورة.

-ثم تطورت الأمور فأصبحنا نسمع اعترافا بالديمقراطية، فإذا ما روجعوا قالوا: "نحن لا نتكلم عن الشق التشريعي من الديمقراطية، إنما عن آليات الديمقراطية ووسائلها". إذا أصبحت كلمة "ديمقراطية" عندهم حمالة وجوه يجوز إقرارها بنية الوجه الصحيح منها الذي لا يتعارض مع الإسلام.

-ثم تطورت الأمور إلى أن أصبحنا نسمع عبارات مثل: "لا بد من الاحتكام إلى صناديق الاقتراع"، "إرادة الشعب هي الفيصل في المبادئ والأفكار". وهذه التصريحات هي خلاصة الديمقراطية التشريعية، خلاصة الديمقراطية كمنهج حياة.

– ثم وصل الأمر إلى إيجاب التصويت بـ"نعم" للدستور الديمقراطي معللا بعضهم ذلك بالعبارات المقيدة في المضابط الخافية عن عيون الناس، بينما يعترف البعض الآخر بأنه دستور شركي، لكن يرى إقرار هذا الشرك هدفا مرحليا لمنع استبداد العلمانيين والفلول!

–هذا فيما يتعلق باللين للنظام غير الإسلامي كما كان الأسير يلين للنظام المعادي شيئا فشيئا.

أما فيما يتعلق بانتقاص الأسير من نظام دولته شيئا فشيئا فيشبهه في واقعنا التصريحات المتتالية التي فيها غض من قيمة الشريعة أو اجتزاء منها بطريقة أو بأخرى.

– فبداية كانت الشريعة كاملة هي المطلب الأوحد الذي لا نكوص عنه في حال الوصول إلى الحكم.

– ثم إذا ببعض الحركات السياسية "الإسلامية" تشارك في السلطة فتلتزم بالقانون الوضعي، مما أثار عليها المطالبين بتحكيم الشريعة. فوجدت الحركات السياسية نفسها وسط معركة الرد والإفحام مضطرة للدفاع عن نفسها وعما تبنته من ديمقراطية، ومنتقصة لخصومها وما يدعون إليه من تطبيق الشريعة. وهنا الخطورة، الانتصار للنفس وللمنهج المنحرف كان في المحصلة على حساب الشريعة وأدى إلى الانتقاص منها بوجه أو بآخر.

– فمرة يميع مفهوم الشريعة بعبارات مثل: "من قال أن الحركة الفلانية لا تطبق الشريعة؟ بل هي تطبق الشريعة. الشريعة تعني العدل، تعني المساواة، وهذه موجودة في ظل الحكومة الفلانية".

– ومرة يصرح بأن الحدود هي أحكام فقهية وليست من مبادئ الشريعة، وأن المطلوب إنما هو الالتزام بمبادئ الشريعة.

– ومرة يتعذر أصحاب هذه المناهج لأنفسهم بأن الناس لا تريد الشريعة ولا تتحملها –وهذا انتقاص–، وأن تطبيقها سيفجر البلد! في إيحاء نفسي فاشل خطير سلبي للشعوب التي تسمع وترى هذا الصراع الفكري وما يدور فيه، فتخوف من الشريعة مع أنها كانت أكثر حماسة لتطبيقها من "الإسلاميين" أنفسهم في البداية!

– ومرة يسلم بوجوب تطبيق الشريعة لكن بشروط: كأن يكون تطبيقا مشروطا بموافقة البرلمان، أو تطبيقا بالتدريج، أو أن تطبق بعد حل مشاكل المجتمع. وقد بينا بالتفصيل في حلقات "نصرة للشريعة" انتقاص ذلك

كله من الشريعة وتهزيله لمفهومها. لكن لاحظ أنه حتى تلك المرحلة كان يسلم بوجوب تطبيقها ولكن بشروط ومحددات.

– ثم إذا بنا نسمع شعارات مثل: (الحرية قبل الشريعة) و: (الاستقرار قبل الشريعة) في سياقات تصرح أحيانا بأن هذه القيم –كالحرية والمساواة والاستقرار– مقدمة على الشريعة سواء أفضت إلى تطبيقها أم لم تفض!

– إلى أن وصل الأمر وسط معركة الجدال إلى أن نسمع من "إسلاميين" لمزا بالشريعة وأقوالا لا تختلف في مؤداها عن أقوال العلمانيين، وكأنهم انتهوا حيث بدأ العلمانيون! فسمعنا من مفتي حركة مدافعا عما فعلته حركته بجماعة منادية بتطبيق الشريعة:

"هؤلاء يتباكون على الشريعة المعطلة في نظرهم ولا يهدأ لهم بال حتى يروا رؤوسا تتطاير وأيدي تقطع وظهورا تجلد". وهذا فيه لمز واضح بالحدود الشرعية ونفور وتنفير منها للأسف الشديد.

– وسمعنا في فتنة الدستور من شخصيات معتبرة عبارات مثل: "لا مكان حاليا لإقامة الخلافة"، "اذهبوا وأقيموا دولتكم وطبقوا الشريعة في الصحراء"، وهي عبارات لا تختلف عن عبارات العلمانيين والله المستعان.

– كما وصل الأمر إلى أن يبرر المبررون بأن هذا الحزب "الإسلامي" أو ذاك لم يأت أصلا لتطبيق شريعة الله! إسلامي ولن يطبق الإسلام! سبحان الله!

إذا إخواني بدأ الأمر بتصريحات بسيطة، كلمة هنا أو جملة هناك يعتبرها البعض غير ذات قيمة، لكن قائليها التزموا بها واضطروا للدفاع عنها، ثم إذا بالركب ينحرف بشكل كامل.

– الانتقال من تنازل لآخر كان انسيابيا ولا شعوريا أحيانا. ساعد في هذا الانتقال ونجاح أسلوب الالتزام والتوافق في حرف الحركات السياسية عوامل منها:

1) أن كل تصريح منحرف خطير كان يلقى جيشا من المبررين المغلبين للعاطفة الذين يحسبون حسن الظن نافعا على كل حال. ولا يعلمون أنهم بوضع حسن الظن في غير موضعه يساعدون في انجراف الناس إلى الهاوية وإنفاذ مخططات أعداء الأمة بينما هم يشوشون وتطغى أصواتهم على صرخات المصلحين المحذرين.

– فتعذر هؤلاء المبررون بداية بأن هذه تصريحات سياسية يراد بها مراوغة العدو وكف شره. إذا هي تصريحات باطلة باعترافهم لكن لها ما يبررها، لكنهم انتهوا بتبرير الباطل ذاته في النهاية!

2) عامل الالتزام العلني: فالتنازلات عن الثوابت موثقة توثيقا مرئيا ومسموعا ومكتوبا. ولذا حرصت الأنظمة وصاغة الدساتير على إلزام النائب والرئيس بالقسم على احترام الدستور الذي يجعل التشريع لغير الله تعالى. وهذا من أكبر فخاخ الالتزام والتوافق. ومع ذلك تجد من يقول: "إن هذا القسم مفسدة تغلبها مصلحة الإصلاحات المنشودة". وهذا حقيقة من السذاجة والضحالة الفكرية والجهل العميق بالأبعاد النفسية لمثل هذا القسم فضلا عن حرمته شرعا.

– ثم عند كل تنازل لم يهدأ بال لأعداء الإسلام الصرحاء حتى حشروا هؤلاء المتنازلين في الزاوية وألزموهم بتبعات تصريحاتهم وتطبيقاتها الواقعية فأقر بها المتنازلون علنا! قالوا لهم: "هل سترضون بنتائج الصندوق أيا كانت؟"، فردوا: "نعم أيا كانت"!

– فشكلت هذه التصريحات والمواقف تنازلات جديدة فتحت عليهم جبهة جديدة مع من يحاكم مواقفهم إلى شريعة الله تعالى.

– فوجد المتنازلون أنفسهم وسط مثلث: فمن زاوية أعداء الإسلام الصرحاء، الذين يحس المتنازلون تجاههم بعقدة النقص ولا زالت أرواحهم محبوسة في سجونهم وإن أخرجت أجسادهم الثورات. هؤلاء الأعداء لن يسكتوا إن تراجع المتنازلون عن تصريحاتهم أو حاولوا أن يتأولوها بما يتوافق مع الشريعة.

ومن زاوية ثانية خصومهم الفكريون الذين ينادون بحق بحرمة التنازلات لكن لا يحسن بعضهم التوازن بين بيان فساد المنهج من جهة والرحمة بالمخالفين وإرادة الخير بهم من جهة أخرى، مما يجعل العزة بالإثم تأخذ هؤلاء المتنازلين ويطغى عليهم الانتصار للنفس.

ومن زاوية ثالثة عوام الناس الذين يعلمهم المتنازلون في المساجد أن التذبذب والمراوغة ليست من صفات المؤمنين، العوام الذين يحبون الشجاعة والجرأة. والمتنازلون يحرصون على إرضاء قاعدتهم الشعبية، وإقناعهم بسداد منهجهم وإبطال منهج مخالفيهم. فكان لا بد من أن يظهروا منسجمين مع تصريحاتهم ومواقفهم. لأنه كما بينا

في الحلقة الماضية يبدو الشخص الذي يتصرف بأشكال متناقضة في عيون الناس متقلبا غير واثق، مشتت الفكر، غير جدير بالثقة. وهذه الخصائص كلها مكروهة من المجتمع ومن الشخص نفسه. فأراد هؤلاء المتنازلون أن يظهروا متوافقين في تصرفاتهم ويتجنبوا ما يمكن اعتباره تضاربا في مواقفهم أمام شعبهم.

– وسط هذه الأقطاب الثلاثة: إرضاء الأعداء، والعناد مع الخصوم الفكريين، وكسب ثقة الناس المحبين للشخصية المنسجمة؛ انبرى المتنازلون للدفاع عن مواقفهم وتصريحاتهم المصادمة للشريعة، حاطبين في الليل لأي دليل شرعي أو عقلي يشهد لها، على طريقة: "اعتقد ثم استدل"، وهي طريقة لا يصيب حاملها الحق أبدا، خاصة إذا فقد التجرد ودفعه التعصب إلى أن ينتصر لنفسه.

– وحتى يقنعوا الناس، كان لا بد من أن يقنعوا أنفسهم أولا، ففاقد الشيء لا يعطيه. وخدعوا أنفسهم للأسف حتى أقنعوها. حصل تغير حقيقي في النفسيات التي أصبحت تصريحاتها ومواقفها جزءا من كيانها، خاصة مع وجود الالتزام العلني بالتوثيق المكتوب والمرئي والمسموع. فوجدت نفسها تدافع عن مواقفها كما تدافع عن كيانها! وبهذا قاد الالتزام إلى التوافق. التزموا بتبعات تنازلاتهم ثم وافقوا نفسياتهم مع هذه التبعات.

هذا التوافق، هذا التغير في النفسيات؛ سهل تقديم تنازلات أكبر، وكلما كسر باب من أبواب الثوابت اجترئ على ما بعده. وأتى أصحاب التصريح الأول بثان هو من لوازمه وتبعاته. وانتصب جيش المبررين الجاهز للدفاع عن هذا التنازل الجديد أيضا.

– وفي كل مرة ينقشع غبار المعركة عن تحويل مسألة من القطعيات إلى مسألة ظنية اجتهادية، وهكذا جاء الهدم على الثوابت واحدا تلو الآخر.

والعجيب أن هؤلاء المتنازلين كثيرا ما يبررون تنازلاتهم الجديدة بعبارات لا تعني إلا أنهم وقعوا في الفخ! وهي قولهم: "لنكن صريحين، فالذي يقبل بالديمقراطية وشروطها عليه أن يقبل باستحقاقاتها. لا يجوز أن نتحدث عن العدالة والمساواة والحرية ثم نضع الشروط المانعة"! أي الشروط الشرعية المانعة من التطبيقات المنحرفة للديمقراطية.

يذكرون هذه العبارة الببغائية وكأنها الدليل الناسخ لكل دليل، وما هي إلا تعبير صريح عن أنهم نصبوا لأنفسهم فخا محكما أعانوا أعدائهم عليه؛ ثم وقعوا فيه وأوغلوا بدلا من الرجوع إلى الحق.

-كان هذا فيما يتعلق بعاملي التوثيق والالتزام العلني، وسنتكلم في المرة القادمة -بإذن الله- عن عاملي بذل الجهد الإضافي والدافعية الذاتية.

لكن نقول ختاما إخواني: لأجل هذا كله ولحكم يعلمها الله حذر -عز وجل- من الانحراف البسيط وغلظ عقوبته. فهو سبحانه يعلم هذه العواقب الوخيمة. ونحن كبشر؛ أضعف من أعدائنا الذين يكيدون ويوظفون العلوم النفسية والاجتماعية والسياسية والعسكرية لحرفنا عن ديننا وردنا عنه. أضعف منهم إلا أن نعتصم بحبل الله ونعض على سنة نبينا بالنواجذ ونلزم المحجة التي لا يزيغ عنها إلا هالك. انظر إلى قوله تعالى:

{ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا}، هذا الشيء القليل لن يكون فعلا كفريا يقينا، فالفعل الكفري ليس شيئا قليلا، ومع ذلك لو وقع منه عليه الصلاة والسلام: {إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا} [الإسراء: 75]، لأذاقه الله عذابا مضاعفا في الدنيا وفي الآخرة.

انظر إلى قوله تعالى: {واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} [المائدة: 49]، وانظر إلى قوله تعالى: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون} [هود: 113]، ولا والله ما انتصر المتنازلون في الدنيا ولن تنصرهم تنازلاتهم من عذاب الله في الآخرة إلا أن يتداركهم برحمته ويردهم إلى الحق ردا جميلا.

{أفلا يتدبرون القرآن} أفلا يتدبرون هذه الآيات، {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (24) إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم (25) ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر}. "في بعض الأمر" فكيف بمن أطاعهم في الديمقراطية كمنهج حياة؟!!

فمن تعامى عن هذه النداءات الإلهية كلها ففقد الحصانة وضره كيد أعدائه فلا يلومن إلا نفسه.

نسأل الله أن يهدي الضالين ويصلح أحوال المسلمين. والسلام عليكم ورحمة الله.

3- عندما يكون الخطأ خيانة!

السلام عليكم ورحمة الله.

إخوتي الكرام، ذكرنا في الحلقة الماضية دور عاملي التوثيق والالتزام العلني في حرف الدعوات عن مسارها، بحيث يبدأ الأمر بتصريحات تبدو عديمة التبعات لكنه ينتهي بتغير النفسيات بحيث تتنكر للشريعة وتتقبل المناهج الوضعية وتتحالف مع أعداء الأمة. وربطنا ذلك بأسلوب الالتزام والتوافق، ذلك الأسلوب النفسي الذي استخدم من قبل في تغيير نفسيات الأسرى.

سنتابع اليوم بالحديث عن عاملين مهمين آخرين لإنجاح أسلوب الالتزام والتوافق في حرف الدعوات، ألا وهما: الاختيار الذاتي وبذل الجهد الإضافي.

أما الاختيار الذاتي، فقد رأينا أن المحققين الصينيين كانوا يقدمون للأسير الأمريكي جائزة تافهة مقابل كتاباته التي قدم فيها شيئا من التنازل، وذلك حتى يحس الأسير أن كتاباته هذه ملكه ونابعة من ذاته، بدون أن ينظر لنفسه على أنه كتب ما كتب من أجل جائزة كبيرة، أي لئلا يشعر بأنه غير مبادئه من أجل مقابل مادي. إذ أن المراد لهذا الأسير هو أن يتقبل المسؤولية الذاتية الداخلية عن عمله وكتاباته ويشعر بأنه صاحب القرار فيها وملزم بها ومضطر للدفاع عنها.

ما إسقاط ذلك على واقع الحركات "الإسلامية"؟

عندما قدمت هذه الحركات التنازل تلو التنازل، هل وعدت في مقابل ذلك بدولة إسلامية؟ والتمكين الفعلي للشريعة؟ أو التحرر من التبعية والاعتماد الاقتصادي والغذائي على الغرب؟ لا. إذ لو وعدت بذلك لأحست أن عدوها يساومها على مبادئها في مقابل هدف يعلم أهميته عند هذه الحركات. وحينئذ فإنه سيصعب على هذه الحركات التخلي عن هذه المبادئ التي أحست باستهداف عدوها لها لأن الصفقة ستكون واضحة: قومي أيتها الحركات بعمل لا يتفق مع دينك وعقيدتك كي تخدمي دين الله! صفقة لشراء الذمم وخوض الوحل في سبيل الوصول إلى غاية نظيفة، وهي صفقة تنفر منها النفوس مهما كانت الغاية عظيمة.

– فحتى لو قبلت الحركات الإسلامية هذه الصفقة؛ فإنها لن تقبل المسؤولية الداخلية عنها، ولن ترى التنازلات التي قدمتها جزءا من كيانها، ولن توافق نفسياتها لتتناسب مع هذه التنازلات. إذ أنها سترى هذه التنازلات حينئذ شيئا منفصلا عن سلوكها ومنظومتها النفسية قامت به كحالة استثنائية من أجل تحصيل هدف عظيم، ثم سترفضه وتتبرأ منه بمجرد تحصيل هذا الهدف.

– وليس هذا هو الذي يريد الأعداء تحقيقه. بل هم يريدون لمنتسب الحركات الإسلامية ألا يحس بالاستدراج، بحيث إذا نظر إلى نفسه في المرآة مساء لا يحس أنه يرى صورة رجل غير مبادئه. فإذا قالت له نفسه: (أجبت أعداءك إلى ما طلبوه منك؟!) رد عليها: (بل أنا صاحب القرار وأنا اخترت أن أفعل ما فعلت، بقناعة منبثقة من نفسي وذاتي). وإن قالت له نفسه: (إنك تتنازل) رد عليها: (أتنازل من أجل ماذا؟ الذي يتنازل يغرى عادة بشيء يحرص عليه. إنما أنا أتلمس فلتات العدو وسهواته ونقاط الضعف في نظامه وقانونه لأحقق منفعة لديني. والتصريح الذي صرحته والموقف الذي اتخذته لا يشكل خرقا كبيرا لمبادئي وعقيدتي).

إذا فهو يوهم نفسه بأنه يغافل العدو وينسل من خلال ثغرات نظامه، لا أنه يساوم على مبادئه.

كان هذا فيما يتعلق بعامل الاختيار الذاتي، وهو –كما في كتاب التأثير وسيكولوجيا الإقناع– أهم عامل لإنجاح أسلوب الالتزام والتوافق.

العامل الرابع والأخير هو بذل الجهد الإضافي. رأينا في الحلقة الأولى إخواني من سيكولوجيا الانحراف أن الشخص الذي يخوض ألما وعناء شديدين في سبيل الحصول على شيء ما فإنه يعطي هذا الشيء أهمية أكبر بكثير ممن حصل عليه بجهد قليل.

في حالة الحركات "الإسلامية" فقد كان واضحا تماما أنه يراد لها بذل جهد كبير في الانتخابات البرلمانية وصرف الأوقات والأموال والجهود في حشد الأصوات وتنظيم الحملات، ثم بذل الجهد الكبير لتحصيل منصب الرئاسة. إذ جاء بعد استثناء بعض المرشحين ثم الزج بمرشحين جدد ظاهري الفساد. ولم يكن تحصيل المنصب من الجولة الأولى، ثم لم يكن بفارق كبير. وكذلك الأمر بالنسبة للدستور وفرض العسكر لشخصيات في تأسيسيته.

وفي كل محطة من هذه المحطات تثور فزاعة العلمانيين والفلول، ويصلت سيف المحكمة الدستورية لتقطيع الحبال وإلجاء الناس إلى حبل "نجاة" جديد موهوم. كل هذا حتى تعطي الحركات الـ "إسلامية" قيمة كبيرة للإنجازات الهزيلة التي وصلتها بشق الأنفس.

فمنصب الرئاسة منزوع الصلاحيات ليس الرئيس فيه سوى خادم للنظام الوضعي المصادم للشريعة وملبس لهذا النظام لحية تضفي "الشرعية" عليه ثم تحمل إرث فساده الثقيل!

والدستور الجديد ما هو إلا اجترار للدستور السابق مع إضافات هزلية هزيلة لم تغير من حقيقته الشركية شيئا. ومع هذا كله اعتبرت الأحزاب "الإسلامية" هذه الإنجازات: إنجازات كبيرة يجب الدفاع عنها والاستماتة في سبيلها، وقدمت التنازلات الفاحشة من أجلها لأنها وصلتها بعد بذل جهود كبيرة رفعت من قيمتها في نفوسها! مع أن هذه "الإنجازات" بحد ذاتها انقلبت هزائم وعبئا ثقيلا ذا تبعات مدمرة للدعوة.

وحتى لا تصحو الأحزاب من ثمالة التنازلات ولا تقرع باب الفرج الحقيقي، كان لا بد من تلهيتها كل فترة بـ"إنجازات" تعثر عليها في ثنايا دهاليز الفشل. فمرة يسمح لها بتغيير قيادات الجيش، ومرة توهم بلعب دور تاريخي في حرب غزة. ثم تضخم هذه الإنجازات من الطرفين:

فالإعلام العميل ودوائر السياسة الصهيوصليبية تتظاهر بالارتجاف والهلع من هذه "الإنجازات"! تظاهر الأب بالخوف من السيف البلاستيكي الذي أشهره طفله في وجهه مع أن الأب هو من جاء له بهذه اللعبة! ولو كانت دوائر السياسة خائفة من النتائج بالفعل لحركت الجيوش دون روية كما فعلت في مالي.

ومن ناحية الحركات الإسلامية والإعلام الخاص المتعاطف معها فإنها تضخم هذه الـ"إنجازات" وتبحث عنها بالمجهر في زوايا الدهليز لأنها لا تريد أن تصحو على حقيقة الفشل المرة، ولا أن تقتنع بخطأ مسلكها وضرورة الاستدراك، وقرع باب الفرج الحقيقي الذي لا تريد هذه الأحزاب تحمل تبعاته.

بعد هذا نقول إخواني: ما سبق كله إنما هو مصداق قول الله تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا} [الأحزاب: 36]،

والقائل سبحانه: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} [الأنعام: 153].

عندما نبين أخطاء، بل معاصي، الحركات "الإسلامية" يرد علينا: (يا أخي هل تشك في أنهم يريدون الإصلاح؟ هل أنت تخونهم؟). والجواب إخواني أنه عندما يحيد الإنسان عن أمر الله وهو يعلم، فإن الخطأ يساوي الخيانة، مهما كان الهدف.

فإن من يبرر لنفسه أن يختار في غير موطن الاختيار ويخالف الأدلة ويترك المنقول للمعقول فإن هذا الزيغ هو بحد ذاته الخيانة، حتى لو كان الهدف بمعصية الله خدمة دين الله!

يصبح الخطأ خيانة لأن النتيجة واحدة (هدم الإسلام ونقض عراه وتشويه الدعوة وشماتة الأعداء).

يصبح الخطأ خيانة لأنه لا يتعلق بمعاص فردية يمارسها الفرد في الخفاء ثم يتوب منها فيتوب الله عليه، بل معاص تؤثر في حياة شعوب بأكملها وتضر بدنياها وأخراها.

يصبح الخطأ خيانة لأن الله –عز وجل– حذر من قليل الميل والركون إلى الأعداء وطاعتهم، فعصى هذا المخطئ ربه.

يصبح الخطأ خيانة لأن الله أمر بالأخذ بالإسلام كافة وحذر من اتباع خطوات الشيطان، فعصى هذا المخطئ ربه.

لذا فإني لا تستهويني نظرية أن هذا الحزب أو ذاك باع ذمته وعقد صفقة مع أمريكا أو غيرها في الغرف المغلقة. بل لا يظن أن أعداء الأمة سيواجهون الأحزاب بطلب صريح أن تخون أمتها، إذ هم يريدون ضمان عامل الاختيار الذاتي كما أسلفنا. لكن في المحصلة لا فرق. فالخطأ والخيانة سيؤديان المهمة ذاتها!

ما يحدث في الغرف المغلقة ليس شرطا أن يكون اتفاقا على الخيانة، وإنما يدخل هؤلاء وقد خسروا المعركة نفسيا ابتداء وفقدوا البوصلة الشرعية، وتملكتهم فكرة إعطاء صورة معتدلة عن أنفسهم. وهذا كله يقود إلى أن يصبح التنازل مبدئا والخيانة اختيارا ذاتيا!

ولذا فحين نخاطب الناس بأن هذا الفعل أو ذاك من الأحزاب مخالف لقال الله وقال رسوله وأجمع المسلمون؛ فإنه من العجب أن يكون الرد: (لكن يا أخي نيتهم خدمة الإسلام)! ما شأننا والنوايا إخواني؟! ومن قال أننا نتهم النوايا بإرادة الخيانة وأذية الإسلام؟ إنما نتهمها بما ظهر من مخالفة الدليل الشرعي، وحينئذ فالخطأ هو الخيانة.

وبعد إخواني، فقد حاولنا في هذه الحلقات تناول موضوع الانحراف عن منهج الله من الناحية النفسية كبعد جديد متكامل مع البعد الشرعي الذي يتم تأصيله في سلسلة "نصرة للشريعة".

وليس الهدف من هذا التناول هو تحديد الموقف بناء على الأدلة العقلية والدراسة النفسية، فهي معرضة للآراء والاجتهادات والخطأ والصواب. وإنما تحدد المواقف بناء على الأدلة الشرعية. ومن أعظم الخير أن تمتثل لأمر الله تعالى انقيادا وتسليما ويقينا بحكمة الله وعلمه ورحمته. وإنما تناولنا الموضوع من الجانب النفسي استئناسا ومحاولة لفهم شيء من حكمة الله –عز وجل– إذ غلظ عقوبة التنازل عن ثوابت الدين وحرم قليله وكثيره.

نسأل الله أن يهدي الضالين ويرد الأحزاب إلى صراطه ردا جميلا.

والسلام عليكم ورحمة الله.